

الفصل التاسع والثلاثون التدريب على الصمت

(جا ٣: ١؛ ٧) " لِكُلِّ شَيْءٍ زَمَانٌ وَلِكُلِّ أَمْرٍ تَحْتَ السَّمَاوَاتِ
وَقْتُ ... لِلسُّكُوتِ وَقْتُ وَالتَّكَلُّمِ وَقْتُ. "

في هذا العالم المتحضر ومع ضوضائه المستمرة، يجب على تلاميذ الرب يسوع أن يعيدوا اكتشاف تدريب الصمت. لكن الحل ليس أن نذهب ونعيش في الصحراء مثل النساك وأن لا نتكلم لمدة أربعين سنة. لكن بالأحرى، جميع تلاميذ الرب يجب أن يدربوا أنفسهم على أخذ أوقات من الصمت. فجميعنا نحتاج لبعض الوقت من الصمت. وعلى الرغم من أن هذا الأمر سيكون مختلف من شخص لآخر، إلا أنه بالتأكيد: بدون أن يكون هناك وقت منتظم وممتد من الصمت حيث ننتظر فيه أمام الرب ونسمح للصمت أن يعمل فينا، لن نستطيع الوقوف أمام سيل الكلمات التي تعمرنا كل يوم، وآراء الناس، وقوة العالم، وهجمات الشرير. بدون الصمت لن نستطيع الوصول لأبعاد أعمق في الحياة الروحية وسيُعاق نمونا الروحي في اتجاه علاقة حميمة وعميقة مع الله.

الصمت مهم لأجل إخراس كل الأصوات الأخرى حتى ما

نستطيع أن نسمع صوت الله: أصوات الجرائد والمجلات والتلفزيون والراديو واللافتات والملصقات الإعلانية والبريد الإلكتروني والإنترنت. وهناك أصوات أخرى لآراء الناس وذو السلطة والوعاظ والكتب التي نقرأها وتطلعاتنا وأحلامنا الشخصية وصوت رغباتنا وأهوائنا. هناك أصوات من الماضي: صوت أبي يدوي في أذني عندما كنت أريد أن أفعل شيء خطأ، صوت مدرس يؤنبني. وهناك صوت الحضارة والتقاليد والمجتمع الذي نعيش فيه والذي يريد أن يأمرنا ويقرر لنا كيف نعيش.

ومثل احتياجنا إلى الخبز اليومي، نحتاج إلى الصمت - حيث لا نسمع أصواتنا وتوقعاتنا أو أصوات وتوقعات الآخرين. نحتاج إلى الصمت حيث ندخل إلى راحة الله وحيث يمكننا أن نتحرر من أنفسنا ومن كل توقعات الآخرين. الصمت مهم عندما تكون حياتنا لا تتسجم (لا تتوافق) مع ما نقوم به، وما قمنا به، وما يجب أن نقوم به، أو ما سنقوم به.

يمكن أن يكون الصمت أمر مخيف. ففي الصمت أدرك فجأة أن الله وأنا فقط معاً. في الصمت أتواجه مع فراغي، وعدم أهميتي ومحدوديتي... ومع الله. في الصمت قد يختار الله أن يتكلم إليّ أو لا يتكلم.

في الصمت نصح واحداً مع الله. هو المكان الذي نتقابل فيه مع الله الغير منظور. " بِالْهُدُوءِ وَالْطَّمَأْنِينَةِ تَكُونُ قُوَّتُكُمْ." (إش:٣٠:١٥) هناك في محضر الله نستطيع أن نهذاً " كَفُوا وَعَلِّمُوا أَنِّي أَنَا اللَّهُ." (مز٤٦:١٠) يمكن لهذا العدد أن يترجم بطريقة أخرى: " أتركوا الأمر كما هو، وكونوا صامتين، واعلموا أنني أنا الله."

في الصمت نتعلم أن السكون أمام الله كافٍ. ونتعلم أنه ليس من الضروري دائماً أن يتكلم الله إلينا، وأنه ليس من الضروري أن يعلن عن نفسه، وأنه ليس من الضروري أن يظهر في الأحلام والرؤى، وأن يجري آيات وعجائب وأن يستجيب لصلواتنا، حتى ما أو من به.

نقرأ عن آباء الصحراء المصريين في القرن الثالث والرابع والذين لم يتوقعوا أبداً من الله أن يعلن نفسه لهم. لكنهم ببساطة كرسوا أنفسهم لله فقط في الصحراء وجاهدوا لحيوا حياة القداسة أمام الله. لم يحسبوا أنفسهم أهلاً لأن يعلن لهم الله عن نفسه، لأنهم كانوا بسطاء، رهبان خطاة خلصوا بالنعمة. وعلى الرغم من ذلك فقد "رأوا" الله وقوته، لكنهم لم يسألوا أو يطلبوا ذلك منه. في إحدى المرات جاء الشيطان في شبه ملاك نور لأحد الرهبان وقال له: "الله أرسلني إليك." أجابه الراهب: "لا بد

أن هناك خطأ ما. أنت بالتأكيد قد قصدت الشخص الخطأ. فأنا لم أفعل شيء يستحق أن يرسل الله من أجله ملاكاً لي." فاستسلم الشيطان وترك الراهب.

نحتاج إلى الصمت أو الهدوء حتى ما نصل إلى مرحلة حيث تمحى رغباتنا الشخصية وحتى لا نتبقى لنا أية إرادة في داخلنا. عن طريق الصمت نصل للنقطة التي نكون فيها قادرين على اختيار إرادة الله بإرادتنا الشخصية. نحتاج إلى الصمت حيث نوقف كل أنشطتنا وأعمالنا، وحيث لا يوجد خطط، ولا تطلعات، ولا أحلام ولا توقعات. حيث كل شيء فينا لا يصبح متمركزاً علينا وحتى يصبح كل شيء متمركز حول الله ومتمحور حول يسوع المسيح.

الصمت يدمر الكبرياء، لأن الصمت لا يتأثر بكل كلماتنا وإنجازاتنا وأعمالنا ومعرفتنا وألقابنا ومواعيدنا. الصمت يجعل أعمالنا العظيمة تصبح صغيرة جداً. ما الذي يحدث لشخص يجري إلى بيته ليخبر أبويه بشيء "كبير" حدث له وبعد أن يخبرهم يجد أن كلماته تُقابل بالصمت؟ ما الذي يحدث لهذا الشيء "الكبير"؟ يصبح صغير جداً. فالصمت يجعل حجم وأهمية أعمالنا أقل مما تبدو عليه. الصمت يقلل أعمالنا العظيمة ويجعلها صغيرة في الحجم، حتى ما تظهر عظمتها الحقيقية

وأهميتها الحقيقية بصورة أو بأخرى في مكانها الصحيح. الصمت يواجهنا ويأخذنا إلى المرحلة التي لا نشعر فيها بالراحة. يتركنا عراة وغير محصنين أمام الله. وعلى الرغم من ذلك، لا بد أن نظل في الصمت حتى ما يزول الشعور بعدم الراحة الذي يسببه الصمت ويصبح الصمت صمتاً مقدساً، ويكون ممثلاً بالله نفسه. عادة لا نرتاح في الصمت لأن لدينا رغبة غير عادية أن نصبح منجزين، ونريد أن نبهر الآخرين، ونصل إلى توقعات الآخرين منا. الصمت يعلن ويكشف عدم الأمان الشخصي في داخلنا، ويكشف عجزنا، ويجبرنا أن نكون أمناء مع أنفسنا. الصمت يساعدنا أن نعرف ما هي الدوافع الحقيقية خلف كل ما نقوم به. الصمت يساعدنا أن نرى الفوضى والضوضاء التي تملأ حياتنا. يساعدنا أن نرى الأماكن التي نحتاج فيها إلى أماكن أكبر في حياتنا، وأين نحتاج إلى هوامش في حياتنا.

واحدة من الأمور التي في اللاوعي والتي تحفز الكثيرين اليوم هي: "أكثر، أفضل، أعلى، أسرع، أحدث." هذا يجعلنا نجري في الحياة. ويدفعنا للإنجاز، وللعمل، ويحدد ما الذي نقوم به، وكيف نقوم به وكيف سنقوم به، ومن نحن. في الصمت تبتعد كل "أعمالنا" ونستطيع أن نبدأ مرة أخرى في فهم أنفسنا

وهويتنا الحقيقية. توجد مقولة تقول: "الله قد صنعنا بشر وليس أدوات للعمل."

الصمت يساعدنا أن نفهم أن هناك اختلافاً بين أعمالنا وبين هويتنا. يعطينا وقت أن نتأمل في معنى كلماتنا وأعمالنا وأن نقوم بعمل تنظيم وتسوية لمستقبلنا، حتى ما تصبح أفعالنا وكلماتنا متفقة مع هويتنا.

الأشخاص الذين يمرون بعلاقة حب، لا يشعرون بالتهديد في الصمت. لكنهم يرحبون بالصمت. لأنه يأتي باقتراب وحميمية أكثر في العلاقة ويجعلها أكثر عمقاً أكثر من الكلمات. وبنفس الطريقة، الصمت يأتي بعلاقة حميمة مع الله وله تأثير أعمق من التسبيح والعبادة الشفهية، فالصمت يكمل التسبيح والعبادة. التسبيح والعبادة يطورا بُعداً واحداً في علاقتنا مع الله، والصمت يطور بُعداً آخر. الصمت يأخذنا لعمق أكثر مع الله - وهذا المكان لا يمكن أن تصل إليه الكلمات. لا نستطيع اختيار واحد من الإثنين، الصمت أو التسبيح والعبادة. لأن كلاهما مهمين لعلاقة أقرب من الله. في الصمت يأتي وعي لمحبة الله الأكيدة والتي لا تزول إلى الأبد ووعي بنعمته وحضوره الدائم واهتمامه الذي لا يمكن وصفه بالكلمات.

نحتاج أن نصبح صامتين للدرجة التي يصبح فيها كل شيء

فينا مليء بالشبع بالله وحده، وحتى ما نصل للنقطة التي نكون فيها مثل الأولاد الصغار في سلام بين ذراعي والديهم، هادئين، وسعداء، وبدون هم في العالم، وبدون خطط أو أعمال أو أي رغبات أخرى. قانعين وسعداء تماماً. إذا خططنا لنصل لهذا المستوى من الصمت ونجحنا في أن نُهدئ ونُسكّن قلوبنا، فسيمكن الله أن يتكلم إلينا، ويعلن نفسه لنا ويظهر لنا ما نحتاج القيام به - إذا أراد ذلك. عادة ما يظل الله صامتاً لأن الذات تكون كبيرة داخلنا وأصوات أخرى كثيرة تتكلم إلينا ونستمع نحن إليها. عندما يتكلم أكثر من شخص يصبح من الصعب الإصغاء والاستماع وفهم ما يقال. في الصمت نتعلم أن نعرف ونميز صوت الراعي. يسوع يقول: خرافي تسمع (تعرف) صوتي. كم شخص فينا يعرف ويميز صوته؟ هل يمكننا أن نميز بين صوته وبين الأصوات الأخرى في العالم؟

الصمت يشفي، لأن الصمت brings perspective. في الصمت الإنجازات ليست ضرورية، ولا أحتاج أن أشرح نفسي، أو أقارن، أو أبرر موقفي، أو أتظاهر. هناك في وقت الصمت أمام الله، أستطيع أن أكون على حقيقتي وبالطريقة التي خلقتني بها. في أوقات الصمت، يريد الله أن يعلمنا، ويعلن نفسه لنا وأيضاً أن يُظهر لنا حقيقة أنفسنا. أحياناً الصمت أمام الله يعلن

الخطية، وعدم الطاعة، والضعف. وفي أوقات أخرى يأتي بعلاقة أعمق مع الله. أي شخص يريد أن يعرف الله لا بد أن يتعلم الانتظار أمام الله في صمت. الفترات الممتدة من الصمت والانعزال هي بصورة كبيرة الإجابة لهؤلاء الذين يعانون من إنتهاء قوتهم ومن الضغوطات ذات المستوى المرتفع.

الصمت هو شرط مطلوب إذا أردنا أن نتعلم الإصغاء. والصمت مهم أيضاً للتفكير والتأمل. فالله يتكلم عن طريق كلمته وعن طريق الصمت. حتى ونحن نحمل كتبنا المقدسة في أيدينا، يمكن للصمت أمام الله أن يصبح مثل الرعد في آذاننا. فالكتاب المقدس عندما يكون في أيدينا لا يمكنه أن يضمن لنا حضور الله. ففي الصمت يمكن "لمقابلات كثيرة مع الله" أن تحدث.

الصمت يحفز الإبداع. ففي الصمت تظهر أفكار وخطط جديدة وناضرة. الصمت والراحة يكسران الطرق القديمة والعادات القديمة والأفكار والمبادئ القديمة.

فنحن لا نستطيع أن نتواصل بطريقة مفيدة مع الآخرين إذا لم يكن لدينا وقت من الصمت حيث نستطيع المراجعة والتقييم والحكم وطرح الأسئلة. فهذا يأتي بالتجديد والقوة الجديدة والمعرفة الجديدة والرجاء الجديد والتبكيئات الجديدة.

الصمت لا يعني أننا بمفردنا. فالله موجود في الصمت. والله

دائماً موجود. نعم، قد نختر أن نتجاهل الله في الصمت. وإذا فعلنا ذلك، ستكون النتيجة النهائية للصمت هي دائماً الوحدة والتشويش وخيبة الأمل. فالصمت بدون معرفة أن الله موجود، وبدون اللقاء مع الله، يصنع منا أيتام روحياً. لكن عندما نعرف أن الله موجود في كل مكان وعندما نكون مفتوحين على الله في الصمت، يصبح لدينا وقتاً للملء، ولقاء مقدس مع الله، ويصبح وقت للرجاء والشبع حيث نمثلئ من الله.

الصمت يعني التوقف عن الكلام. يوجد صمت نحفظ فيه بأفكارنا وآلامنا وأحلامنا ومشاعرنا لأنفسنا. لكن التوقف عن الكلام لا يجب أن يستخدم ضد الآخرين. فالتوقف عن الكلام قد تكون طريقة لتجاهل الآخرين، وللحكم والإدانة. وهذا خطأ.

استخدم يسوع الصمت أحياناً ليكشف للناس حماقتهم. عندما أراد القادة الروحيين رجم المرأة الزانية في يوحنا ٨، أخذ يسوع يكتب على الأرض بأصبعه ولم يتفوه بكلمة واحدة. وفي هذا الصمت أعلن الله نفسه لضمانر هؤلاء القادة.

قلما يكون الصمت ممكناً بدون العزلة. أحياناً يكون من الضروري أن تبتعد وتكون مع الله وحدك؟ أحياناً يكون ضرورياً أن نذهب حرفياً لمكان لا يوجد فيه أي شخص معك. الكثير منا يخافون العزلة لأننا نعرف بالغريزة، أنه هناك سنكون

بمفردنا، وسنتواجه مع أنفسنا وسنكون بمفردنا مع الله. ففي العزلة نعرف مَنْ هو الله ونعرف حقيقة أنفسنا ولهذا السبب نتجنب أن نصبح بمفردنا. لكن من الضروري أن نبدأ مرة أخرى الآن، وأكثر من ذي قبل، أن نمارس تدريب العزلة. هناك اختلاف بين الوحدة والإنفراد. يتمنى يسوع دائماً أن يقودنا من الوحدة إلى الإنفراد. وفي نهاية طريق الانعزال، في الصمت، ينتظرنا الرب يسوع. وهناك يعلن لنا عن نفسه كالرب، والمسيح، والسيد، والملك المتحكم في حياتنا، وهناك أيضاً يعلن عن نفسه كالفادي، الشخص الذي يحبنا، الأب الأبدي، المشير العجيب.

قليلة هي الأشياء التي يمكنها أن تواجه الموضوعات العميقة وأبعاد النفس، وعدم تقواها وتفككها، كما يفعل الصمت والعزلة. "النفس" في جهلها، وتفككها، وإمكانية تعرضها للهجوم وظهورها على حقيقتها، وشكلها العاري، تكون مثيرة للاشمئزاز ومرتبعة. ولذلك عادة ما نغطي "النفس" بالملابس الجميلة والفلسفات والبيوت العصرية والسيارات الجميلة وآداب السلوك (الإتيكيت) والأصوات المرتفعة والحفلات والمؤتمرات واللقاءات العديدة. في الصمت، حيث نصبح هادئين أمام الله، نبدأ مرة أخرى في رؤية أنفسنا بعمق ودوافعنا بعمق.

الصمت يعلمنا قيمة الكلام. تكلم وينستون تشيرشل Winston Churchill لإحدى المدارس في إحدى المناسبات، وكانت خطبته مكونة من ٣ جمل فقط. وقف على المنصة وقال: " لا تستسلم أبداً. لا تستسلم أبداً. لا تستسلم أبداً." وكانت واحدة من أكثر الخطب قوة في التاريخ. فلو كان قد تكلم لمدة ساعة ثم وضع هذه العبارات الثلاثة في منتصف حديثه لما كان قد تذكرها أحد. فكلمات قليلة وصحيحة ومستخدمة بالطريقة الصحيحة، لها قوة عظيمة.

الانسحاب الداخلي والصمت يحررنا من الوحدة والخوف. آباء الصحراء في القرن الثالث والرابع علمونا: الصمت يمدنا بإجابات لكل الأسئلة. ويقول إشعيا، في الصمت والهدوء نجد قوة الله " ...بِالْهُدُوءِ وَالطَّمَأْنِينَةِ تَكُونُ قُوَّتُكُمْ... " (إش:٣٠:١٥) الطريق لعلاقة أكثر حميمية مع الله وللتحرر من الذات ولفكرة أكثر إتساعاً عن المعنى الحقيقي للحياة، الطريق للسلام والاكتفاء هو طريق الانعزال والهدوء. هذا هو الطريق الآخر.